الغصن المترنّح

[الكامل]

لِـمَـنِ الـشُّـمُـوسُ عَـزِيـزَةَ الأَحْـداجِ
يَـطْـلُـعْـنَ بَـيـنَ الـوَشْـي وَالـدِّيـبـاجِ[١]
مِـن كـلّ فـائـقَـةِ الـجـمـالِ كـدُمْـيَـةٍ
مـن لُـؤلُـؤٍ قَـدْ صُـوّرَتْ فـي عـاجِ[٢]
تَـمْـشـي وَتَـرْفُـلُ فـي الـثّـيَـابِ كـأنّـهـا
غُـصْـنٌ تَـرَنّـحَ فـي نَـقـاً رَجْـرَاجِ[٣]
حَـفّـتْ بـهـنّ مَـنَـاصِـلٌ وَذَوَابِـلٌ،
وَمَـشَـتْ بـهـنّ ذَوَامِـلٌ وَنَـوَاجـي[٤]

= وهي نور يُستضاء به على عزّهم وفخرهم، وهي قصيدة تفضل كلّ القصائد، وهي ردء لهم وحماية تُظهرهم بمظهر الكمال الذي لا تشوّهه النقائص.

(١)، (٢) الأحداج؛ مفردها حدج: الهوادج يقصد بالشموس: النساء. الوشي: الثياب المزركشة. الديباج: الأثواب المنمّقة. يبدأ الشاعر قصيدة غزلية، فثمة كوكبة من النسوة الجميلات تسير بهنّ المطايا، وهنّ في هوادجهنّ، يرفلْن بالموشّى من الأثواب والديباج. وجمالهن نموذجيّ فائق، ممّا يُوحي بأنهنّ خارقات الجمال أشبهن الدمى المصنوعة من اللؤلؤ والعاج، فهنّ بيض حرّات.

(٣) ترفل: تتبختر في مشيها وهي تتزيا بتلك الأثواب الغالية الثمن. النقا: القطعة من الرمل. رجراج: متحرّك باستمرار، إنها فتاة تمتلئ شباباً، وحيويّة، يزيدها جمالاً ما ترتديه، فتميس به باعتزاز وتيه، فتبدو كغصن لدن يموج مع النسيم الرقيق في منبت رمليّ دائم الحركة لا يستكين.

(٤) المناصل، مفردها مِنْصل: السيوف البتّارة. الذوابل: الرماح. الذوامل: واحدتها ذاملة: الناقة التي تزداد سرعتها على الدوام. النواجي واحدتها ناجية: الناقة السريعة. يصف الشاعر ذلك الموكب في سيره. وما يدلّ على كرم محتد تلك الفتاة وموقعها الاجتماعي أن الفرسان يحمون موكبها، =

فـيـهـنّ هَـيْـفـاءُ الـقَـوَام، كـأنّـهَـا
فُـلْـكٌ مُـشَـرَّعَـةٌ عـلـى الأمْـوَاجِ[١]
خَـطَـفَ الـظّـلامُ، كـسـارِقٍ، مـن شـعـرِهـا
فَـكَـأنّـمَـا قَـرَنَ الـدُّجَـى بـدَيـاجـي[٢]
أبْـصَـرْتُ ثـمّ هَـوَيْـتُ ثـمّ كَـتَـمْـتُ مـا
ألْـقـى، وَلـمْ يَـعْـلَـمْ بـذَاكَ مُـنـاجـي[٣]
فـوَصَـلْـتُ ثـمّ قـدَرْتُ ثـمّ عَـفَـفْـتُ مـن
شَـرَفٍ تَـنـاهـى بـي إلـى الإنْـضَـاجِ[٤]

= وقد تقلّدوا سيوفهم وحملوا رماحهم لحمايتها والدفاع عن الموكب في حال هجوم مفاجئ عليها؛ وقوام هذا الموكب نياق نجيبات سريعات.

(١) هيفاء القوام: طويلة ضامرة البطن، خاصرتها رقيقة. الفلك: السفن. مشرَّعة: ذات أشرعة. بين هؤلاء النسوة، يركّز الشاعر نظره على إحداهن ويشرع يصفها متغزّلاً؛ فهي هيفاء ذات قوائم طويلة ضامرة البطن وليست ممتلئة الخاصرتين، وهي في هودجها الذي تخترقه الرياح أثناء المسير فيبدو كسفينة تمخر عباب اليم ويدفع أشرعتها ريح قوي.

(٢) دياجي الليل: ظلمته الشديدة. إنها ذات شعر أسود ينسدل على كتفيها والعجيب أن ظلمة الليل استمدت لونها من شعر تلك الفتاة، ممّا يدلّ على أنها في مقتبل العمر.

(٣) تسارعت لفتات الشاعر وتبعتها أحاسيسه بسرعة خاطفة، أبصر فكان الحبّ ثم تلاه أنه تغلغل في أعماق روحه، والكلّ لا يدري ما حلّ بالشاعر، وهذا ما سهّل له أن يخبئ عن الملأ ما يحسّ به.

(٤) الإنضاح: الانتهاء إلى الغاية، يصف الشاعر ما حدث له لقد سعى في سبيل الحصول على مبتغاه من تلك المرأة فكان له ما أراد، ولكنه عفّ وامتنع عن الوقوع في المحظور، وهنا تتدخل الإرادة فامتنع محافظة على شرف تلك المرأة، وقد أدرك من الشرف منتهاه أيضاً.